أولريش رودينـاور

على الهامش

رواية

أشعر أحيانًا كأنني طفل بلا أم،

أشعر أحيانًا كأنني طفل بلا أم،

أشعر أحيانًا كأنني طفل بلا أم،

بعيدًا جدًا عن الوطن، بعيدًا جدًا عن الوطن

ترنيمة روحية

أسلك مساري؛ فيقودني لمسافة قصيرة

ثم إلى الوطن؛

ثم، بلا صوت ولا كلمة،

أصبح على الهامش

روبرت فالزر

وجد نفسه جالسًا فجأة على المقعد في الكنيسة ويحدّق بأعلى إلى الصليب. بدا له الأمر مريبًا. لم يفهم ما كان يقوله القس، رغم أن صوته كان جهوريًا ويتردد صداه بشكل مؤثر في أرجاء الكنيسة. لم يتمكن من إدراك أي شيء مما قيل. كلمات مفردة، نعم. لكن بلا مغزى. وربما كان يشعر في قرارة نفسه أن المغزى ليس هو المطلوب، بل ذلك الدويّ والصدى. وكأن الهدف كان أن يُفقد صوابه وسط هذا الضجيج، الرتيب والعالي، فيما كان جميع الخُطاة الآخرين المحبوسين في هذا البناء المقدّس يطأطئون رؤوسهم، أما هو فكان مذهولًا، يتلفت حوله بيأس. الصليب، الصوت المدوي. ثم بدأ عزف الأرغن، تلك الأوتار التي تجرف كل شيء معها، يا له من ضجيج صارخ. *"إلهنا العظيم، نسبّحك؛ يا رب، نمجّد قوتك"*. حينئذ شعر بخوف أكبر وجلس هناك أكثر ذهولاً من قبل.

"قد أتيت من عرش السماء العالي إلى عالمنا،

وجلبت لنا نعمة الرب، وحررتنا من الخطيئة".

ورغم أنه لم يعش هذا المشهد المقدس لأول مرة، إلا أنه كان يشعر في كل مرة، وها هو الآن كذلك، وكأنها المرة الأولى التي يختبر فيها كل ذلك بجسده. *"نجّنا من الخطايا، نجّنا من الموت، كن رؤوفًا بنا، يا رب، يا إلهي، ارحم، ارحمنا"* عندما أنهى الجميع الترتيل، وامتصّت الجدران السميكة آخر نغمة مرتجفة من أوتار الأرغن، ساد صمت رهيب. لوهلة قصيرة. سكون. ثم... الكلمة التي قُذفت الآن في صحن الكنيسة وبقيت معلقة بين المقاعد :الخوف والتواضع والنعمة والرحمة والنور. ثم دوت

نغمات الأرغن من جديد، وعم ضباب البخور. وكان الجو باردًا، رغم أن أيام قديسي الجليد قد ولت بالفعل. لطالما كان يشعر دائمًا بالبرد، لكن هذا الشعور يزيد هنا على وجه الخصوص، وكان يظن أن لهذا معنى. ربما لم يكن لهيب الإيمان متأججًا داخله بما يكفي. ربما كانت هناك برودة تكمن فيه، حيث كان ينبغي عليه أن يشعر بالدفء.

ثم خرجوا إلى ساحة الكنيسة، حيث تجمّع الكل في أركان عائلية.
ظل الأطفال الصغار يركضون حول الكبار، أولئك الذين بدأوا يتخذون ملامح آبائهم. وقد ارتسم الخوف الغبي على وجوههم، عميقًا، وكأنه منقوش هناك، لأن الحياة ستستمر دائمًا على هذا النحو. الجميع ممن كانوا ينتظرون مصافحة القس بعد القداس ويتمنون لبعضهم أحدًا مباركًا، كانوا من المزارعين. بينما وقف المعلّم في القرية فقط جانبًا مع أسرته، وكذلك الطبيب كان من الواقفين على الأطراف أيضًا، رغم أنه كان يسكن في القرية لكن عيادته كانت في المدينة. كانت شجرة الزيزفون تسمق في وسط الساحة تحيط بها مقاعد، كانت قد جلست عليها النساء من القرن الماضي. إحداهن كان الجميع يناديها ليزبيث، كانت قد وُلدت في عام تأسيس الإمبراطورية. كانت الأكثر حيوية رغم أنها بلا شك كانت الأكبر سنًا في هذا الصباح من أيام الأحد، لكن كثيرين ممّن مرّوا بتجارب أقل بكثير من هذه الليزبيث، جعلتهم آخر حرب وما تلاها شيوخًا قبل أوانهم. وكلّ ما كان يُرى هناك بدا متلألئًا، كأنه غير واقعي، والأصوات وكأنها آتية من عالم آخر، من مكان بعيد.

كان – وهو يعلم تمامًا أنه يرتكب بذلك خطيئة مميتة – لا يزال يحتفظ بالقربان في فمه المغلق، مخبّأ تحت لسانه. *يا إلهي العظيم.*

كان الأمر غريبًا، لسببٍ ما لم يتمكن من ابتلاعه. لقد أصبح الآن طريًا تمامًا أشبه بالعجينة، لكنه لا يزال يشعر به.

كان يذوب ببطء في قاع فمه، بطعم حلو ولطيف، لكن في الوقت ذاته مقزز. لقد بدأ يلتصق بقوة، ربما لن يتخلص منه أبدًا. كم كان يود أن يبصقها، لكنه لم يجرؤ، وربما لم يعد بإمكانه ذلك أصلاً، إذ كان القربان قد علق بلزوجة شديدة تحت لسانه. قبل بضعة أسابيع فقط تناول القربان المقدس للمرة الأولى، وحتى حينها كان الأمر مقلقًا له، ألا يتعين عليه تناول مجرد قطعة خبز، بل "الجسد الحقيقي للمسيح." جلست ليزبيث تحت شجرة الزيزفون، كانت تنظر إليه وتبتسم. وكان هذا أمرًا نادرًا، أن تبتسم، بل وأكثر ندرة أن تفعل ذلك دون سبب. وأن يبتسم له أحد؟ ذلك كان أندر من النادر.بالطبع، فقط لأنها لم تكن تعرف عن معصيته. لو كانت تعرف، لانزلقت من على المقعد، ولم تكن لتنهض بعدها، مصعوقة بصاعقة سماوية. كان القس يدور بين الحضور ويتبادل كلمات قليلة مع كل شخص. وكان الفلاحون واقفين باستقامة في حُلاتهم الضيقة جدًا. والفلاحات يرتدين فساتين يوم الأحد وينظرن بخنوع إلى الأمام. أما الأطفال الصغار، فقد تزاحموا خلف أرداف أمهاتهم العريضة، وجوههم مختبئة في ثنيات التنانير. بينما مدّ الأكبر سنًا أيديهم الصغيرة للسلام مثل الجِراء.

أما هو، فكان واقفًا هناك، يحمل سرّه تحت لسانه، وكان قد أصبح كبيرًا على أن يدفن أنفه في قماش فستان خشن، لكن السؤال لم يكن مطروحًا أصلاً. لقد كان غير مرئي إلى حدٍّ جعله لا يستحق حتى نظرة واحدة من القس. ذلك القس، الذي أتى من المدينة (وهي أكبر من هذه القرية
الحقيرة، لكن أزقتها وبيوتها كانت ضيقة بنفس القدر)، أسرع إلى خرافه النائية في هذا الأحد من شهر مايو/أيار. وكان هو، شيئًا آخر أيضًا، كان المذنب، لكن الكلمة المناسبة لذلك لم تُذكر هذا اليوم. حتى لذلك لم يكن مهمًّا بما يكفي، كي يُوجَّه له جرح بكلمة قاسية.
بصقة واحدة. لكن الجو كان رسميًا أكثر من أن يسمح بذلك ، في وقت ما بين الفصح والعنصرة، في ظل شجرة الزيزفون. ثم ابتلع أخيرًا الجسد.
كانت ليزبيث تبتسم، لكن لم تكن تبتسم له، بل ابتسامة عامة، كأن الله الطيب قد كلّفها بها، وثبّتها أخيرًا على وجهها. في الثالثة والثمانين من عمرها، كان من حقها أن تبتسم؛ لقد نجَت من أشياء كثيرة، وربما كانت تعرف عن الآخرة أكثر من الآخرين، لأنها أقرب إليها. من يدري؟ لم يكن ذلك مؤكدًا أبدًا.

قبل بضعة أشهر كان قد حدثت فاجعة، إذ دعا الله القدير شابًا فلاحًا إلى جواره، قبل أوانه بكثير. كان الشاب في السادسة عشرة فقط، لكنه لم يتبع نداء ربه فورًا، فقد كان ثور في الحظيرة قد ضغطه إلى الحائط وخنق أنفاسه. ظلّ لعدة أيام بين الوعي واللاوعي، متشبثًا بالحياة، حياة لم تكن تعرف إلا العمل، نهارًا بعد نهار، وليلًا، لم يكن هناك مجال للتفكير في

شيء سوى ساعات النوم القليلة، وربما كان يفكّر أيضًا في تلك الفتاة التي رقص معها في احتفال تدشين الكنيسة. هل كان لا يزال يفكّر فيها حين انحشر صدره ولم يعد يستطيع التنفس؟ هل بقي هناك مجال لأي أفكار أصلًا؟ ومن كان ليعرف، هل قلبه لا يزال ينبض بشكل صحيح؟ بعد خمسة أيام، تم التسليم بالأمر، وارتاح. قال الناس: على أية حال، لم يكن سيكون له نفع بعد ذلك. فهم هنا لا يتحدثون كثيرًا حول الأمور الواضحة. والموت لم يكن شيئًا مخيفًا، فالأمور تُنظم من جهةٍ عليا. *يا إلهنا العظيم، نسبّحك*. كانت ليزبيث قريبة من نهايتها مثلها مثل الآخرين، ولم تكن هي، ولا غيرها، تشكو من ذلك. حتى والدة الشاب الفلاح لم تغضب من ربها، بل كانت تبتلع كل شيء في داخلها، بالمعنى الحرفي، راحت تكدّس طبقة دسمة من الشحم كدرعٍ ضد كل ما قد يؤذيها.

أما الصبي في ساحة الكنيسة، ذاك الذي لم يكن بإمكانه أن يدفن أنفه في ثوب أمه، لأنه لم يكن هناك ثوب يُدفن فيه الأنف، ولأنه لم تكن هناك أم من الأساس ، فقد كان يتابع ما يجري في هذا الأحد بانتباه. لكنه فعل ذلك خفية، حتى لا يُضبط وهو يراقب. لأنه من الأفضل هنا ألا ينظر أحد إلى الآخر، لا بفضول ولا بشك، ولا حتى بصفاء نية. لم يكن مسموحًا أن يهتم أحد بشؤون غيره، إلا إذا كان الأمر يتعلّق بالعمل. والصبي كان يعرف القوانين التي تحكم يوم الأحد، وأيام الأسبوع أيضًا، دون أن يُعلّمه أحد إياها. كان يعرفها فحسب. هكذا وقف هناك، تائهًا وسط هذا الموقف الاحتفالي. لم يهتم أهله لأمره. كانوا قد ابتعدوا عنه قليلًا، وهو عنهم

أيضًا. لم يكونوا يريدون أن يكون قريبًا منهم، وهو لم يكن يريد أن يكون قريبًا منهم. وقلة التواصل بينهم لم تكن تُعتبر شيئًا سيئًا، بل على العكس، كانوا يرون أن ذلك لا يضر. كانوا ينادونه حين يحتاجون إليه، حين يريدون منه شيئًا. أما في غير ذلك فكان يمثل عبئًا. وكان يعلم تمامًا أنه عبء. وقد أُبلغ بذلك وليس بإشارات ناعمة كما قد يكون الحال في الطبقات الأرقى. ليس بنظرة تُخفض، أو وجه يُصرف، أو يد تُترك لتسقط. إذ لم يتقن الفلاحون تلك اللغة. لم يكونوا يتحدثون كثيرًا أصلًا، لكنهم كانوا يعرفون بعض ألفاظ السباب، وبعضها كان يصيبه مباشرة، لأنها كانت تناسبه، أو هكذا ظنوا. "كسول" كانت واحدة من الكلمات الأخف التي وُجهت إليه مباشرة، حين تجرأ وجلس في غرفة المعيشة وقت الظهيرة يحاول أن يفهم واجبًا مدرسيًا، أو غالبًا، ييأس من حله. "ما الذي تعبث به هناك؟" هكذا كانوا يسألونه بازدراء. "أليس لديك ما يكفي من الوقت في المدرسة؟ ألا يكفيك أن تغمس أنفك في الدفاتر هناك، والآن تريد أن تفعل ذلك هنا أيضًا؟ هناك ما يكفي من العمل، لا يزال كذا وكذا ينتظر في الخارج، وتريد أن تتناول العشاء أيضًا؟ حسنًا، العشاء يجب أن يُستحق. "

كانوا يخاطبونه كما يُخاطب الخدم. ولم يكن قد بلغ التاسعة بعد. كان صغير الجسد، لم ينمُ جيدًا، يبدو أصغر من عمره، لكن وجهه، في لحظات معيّنة، كان يحمل تعبيرًا لرجلٍ أنهكته الحياة. هكذا سيكون شكله في كبره، هكذا سيبدو ذات يوم ،عجوزًا. وعندما كان يمر، في لحظة

عابرة وبلا قصد، أمام المرآة في الممر، ويرى نفسه فيها كان يرتعب للحظة، لأنه كان يرى والده في المرآة، عجوزًا. ومع أنه لم يكن يعرف وجه أبيه، كان متأكدًا: أنه هكذا لا بد أن يكون شكله، مشدودًا، ملتويًا، وفي عينيه خوف، أو ربما اشمئزاز. وذاك الصبي الذي لم يبلغ التاسعة بعد، لم يكن يستطيع أن يحدد ذلك تمامًا. ولا أنا أستطيع، رغم أنني لا تنقصني الكلمات، كما كانت تنقصه.

ذات يوم أُرسل إلى محل البقالة الصغير، وقد وضعوا في يده ورقة دسّها في جيبه، لكن عندما وقف أمام البقال وأخذ يفتش في جيبه، كانت الورقة قد اختفت. مع أنه كان يعرف جيدًا ما كان مكتوبًا على الورقة، لأنها كانت دائمًا تحتوي على نفس الطلبات، إذ نادرًا ما كانت هناك مفاجآت، إلا أنه لم يستطع النطق بأي كلمة. فوقف أمام البقال، ذلك الرجل بمعطفه المتسخ، وتجمّد. ثم اجتاحه الذعر، فهرب. وظل واقفًا عند الزاوية التالية، يحاول أن يجمع أفكاره، لأنه كان يعرف ما كُتب في الورقة، كل ما عليه هو تذكّره. لكن الكلمات كانت مدفونة تحت الخوف. حتى وهو واقف هناك وحده، مسنودًا إلى حائط المنزل، لم يتذكر ما كان في الورقة. عادت الصور لتتراءى أمامه لأنه كثيرًا ما كان يذهب لجلب أشياء: معلبات، سجائر، وأي شيء آخر. حيث رأى كل شيء بوضوح أمامه: الأشكال، الألوان، الكميات- لكن الكلمات هي التي اختفت. مرّت الدقائق، ولم يرجع شيء إلى ذاكرته، مما ينبغي أن يكون عالقًا هناك، لكنه صار بلا اسم. عاد إلى البيت دون أن يجلب شيئًا، والنقود لا تزال

في جيبه، فتسلّل إلى الداخل، لكن عمه أمسك به فورًا. وسأله من أين أتى؟ وماذا كان يفعل؟ لماذا لم يفعل كما أُمر؟ ولم يستطع هنا أيضًا أن ينطق بكلمة واحدة. كان الذنب جاثمًا فوقه بعمق حتى أن الألم بدأ يحترق تحت جلده كما لو كان يحترق من الداخل. بدأ العم يصرخ في وجهه، لكن لحسن الحظ كان الصراخ يمرّ من فوقه، لأنه كان قصيرًا وصغير الحجم جدًا، ولو كان أكبر لم يكن ليقدر على مواجهته. سأله العم: "ألن ترد أخيرًا؟." فحاول أن يرد. لتنسل منه كلمتان أو ثلاث، متعثّرة بلا معنى ولا تصلح كعذر على فشله. راح العم يكيل له السباب بأنه "لا يمكن الوثوق به في أي شيء، وأنه تافه، يأكل، نعم، لكن غير ذلك، لا يصلح لشيء"! وهنا، تذكّر النقود، فأخرجها من جيب بنطاله وقدّمها للعم الغاضب، كما لو كانت كفارة عن ذنب. غرامة توبة. *يا إلهي الطيب*. مع أنها لم تكن أمواله، بل كانت مجرد أمانة يجب أن يدفع بها ثمن العشاء، لو لم يكن قد أضاع الورقة ثم ضاعت منه لاحقًا الكلمات التي كانت مكتوبة عليها. والآن، وهذا ما بدا له غريبًا، ها هو يتذكرها مجددًا: *مخلل خيار، برطمان واحد؛ خبز، رغيف كبير؛ جعة، أربع زجاجات*.

عادوا من ساحة الكنيسة إلى المزرعة. حيث قطعوا الأمتار الأولى ببطء، لكن سرعان ما أدركوا أن السرعة مطلوبة، فحتى في يوم الرب، لا يُمنَح أحد شيئًا بالمجان. كان هو يجرّ قدميه دائمًا على بُعد بضع خطوات خلف أهله، خلف الآخرين. أحيانًا كان يلتفت أحدهم إليه ويسأله إن كان ينوي أن ينام وهو يمشي. لكن إذا أسرع الخطى ولحق بهم، وسار

بجانبهم، فلم يكن أحد يوليه اهتمامًا، أو كانوا، على ما يبدو، يتجنبونه عمدًا. وعلى أي حال، لم يكن الحديث معه يحصل كثيرًا...

عيّنة قراءة من رواية:
أولريش رودناور
"على الهامش "

192صفحة ·

2024 ©دار نشر بيرنبرغ